

جميلة الفايز

بقلم وليد أبو بكر

لم تعودى صغيرة ..

ولم يعد امامك طريق واضح . كان شريف الصالح من تقود اليه الطريق . لكنه وقف قبل نهايتها . لم يعد في نظرك اهلك مناسباً . لم يعد مناسباً في نظرك ..

قبل ذلك ، كانت عينك تنظر حولها لتثير اعجاباً .. اما الآن فهي تبحث . وانت لا تستطيعين اخفاء القلق يا جميلة الفايز ..

الدم الحار فيك ما زال يرتجف . ما الذي يميزك عن احمد الفايز ؟ عينه تغوص في جسد كل امرأة ، وعينك تبحث عن الشباب ..

لكنك امرأة في النهاية ، امرأة لا تملك جرأة احمد الفايز . الكلمة قد تعيبك اذا لم تكن سرا او خوفاً ..

والنار في الجسد الناضج تمور . وحمدان الاهبل يخاف ، لكنه يطفىء النار .

حمدان الاهبل يرضى مرة ، ويغضب مرات . بعد ان شم رائحة الانثى فيك صغار يغار . عينه تراقب ضابط الجمرك الذي يعجبك ببذلته الغامقة . وعين حمدان لا هروب منها . تجدينها في كل مكان ، في كل لحظة . كدت تخافين من عينه لكنك تعرفين انه يخاف على لسانه .. وضابط الجمرك يرفع نظره لحظة ، وينظر في الشارع لحظة . يخاف عيني حمدان الاهبل ..

والكلمة لا تستطيع ان تصل . الناس كلهم عيون . وضابط الجمرك يتظاهر بأنه يطرق الباب ، والمنزل خال ، وهو يعرف ان المنزل خال .. وتطلين عليه من النافذة لتخبريه ان المنزل خال ، فيشير بعينه ، ويظل بالباب ..

وانت تحبين طلته يا جميلة الفايز ، واحمد في الحقل ، ووالدتك تزور ، والوالد في الحارة ينتظر ضابط الجمرك ، ويشترى بعض الاغراض لتعدي له الغداء ..

لو لم يحب ان يراك لما جاء .. وانت تحبين طلته . وحمدان الاهبل لم يظهر هذا اليوم . والشارع خال . والضابط

ينتظر .. والنافذة تغلق ..

ويسمع لهائك ، وتسمعين :

– اردت ان اراك ..

وكنت تحبين طلته ، لكن الباب موارب ، والخوف يهزك . يهز صوتك :

– والدي ليس هنا ..

– اردت ان اراك انت ..

والدم الحار يغلي . وفتحة الباب تتسع . وفمه يقترب ليهمس ، فتحذرين :

– سيمر احد ..

ويلتفت ليفاجأ بأن حمدان الاهبل كان يقف قريباً ، والغضب يملأ عينيه احمراراً .. حمدان الاهبل يقف هناك ، كالقدر ..

الم تعرفي يا جميلة الفايز ان حمدان الاهبل صار مسكوناً بك ؟ ألم تعرفي انه يغار من نظرتك الى ضابط الجمرك ؟ ألم تعرفي انه تعمس الا يذهب الى الحقل ، عندما سمع بأن ضابط الجمرك معزوم على الغداء عندكم . اراد ان يحرسك من ضابط الجمرك . اراد ان يحرس عينك فلا تذهبا بعيداً .. لم يجد حجة يجيء بها الى البيت . كان يراقب . رأى الشايب يخرج . رأى العجوز تخرج . رأى السلّة في يد الشايب . وكنت وحدك في المنزل . اقترب . رفع يده ليطرق الباب . خاف . لم يجد حجة يقولها . بحث عن الحجة . لحق بالشايب الى السوق . ظل يتقافز حوله كالقرد حتى لمح . سأل الشايب بحدّة :

– لماذا لم تذهب الى الحقل يا اهبل ؟

كان قد جهز الرد :

– اردت مساعدتك .. فليدك ضيوف ..

وكان الشايب قد عزم اجنحة القوة في القرية . ابتسم ونسي حمدان . لكن حمدان الاهبل كان يصر على ان يعود الى البيت ليحرسك . كان يرفض ان ينسأه الشايب . لا يسمح بأن

تضيق الفرصة • قفز امام الشايب من جديد ، وتساءل بهبل :
- ألا تحتاج الى المساعدة ؟ ..

مد له الشايب السلة مملوءة دون ان يتكلم • قطع الطريق ركضا حتى كاد يعثر • شبك طرف « قمبازه » بفمه وركض من جديد • ضحك منه الصغار في الطريق ، وظل يركض • كان يريد ان يصل ، ليحرسك من ضابط الجمرك •• ليحرس عينيك فلا تذهب بعيدا ••

لكن عينيك كانتا قد نزلتا • لم تكتفيا بالنظر من النافذة • وكان الجنون قد بلغ مداه في عيني حمدان الاهبل • سأله ضابط الجمرك بارتباك :

- ماذا تفعل هنا يا اهل ؟

وسمعت الجواب قاسيا :

- انا ام انت ؟

وتوقعت الشر فهربت الى النافذة • كان صوت حمدان الاهبل يصلك عاليا :

- لقد ارسلني صاحب المنزل ••

وحمدت الله لان الضابط استطاع ان يخفف لهجته :

- انني ابحت عنه •• اين هو ؟

- تبحت عنه هنا •• وانت تعلم انه ينتظرك في المقهى !

والضابط كان يهرب ، حتى انه لم يكلف نفسه عناء النظر الى اعلى • وكان غضب حمدان الاهبل كبيرا • قبل ان يطرق الباب ، كنت تفتحين • كنت خائفة من حمدان • عليك ان تداريه قبل ان تفلت منه كلمة • شدته الى الداخل وهو يمد يده بالسلة • لم تسيطر على صوتك المرتجف وانت تسألين :

- كيف جئت الآن ؟

وكانت نظرتة تحمل تهديدا مخيفا • شعرت بأنك تماديت • امامك رجل اهل يا جميلة ، يمد لك يدا ترتعش حتى تكاد السلة تسقط منها • حاولت السيطرة على نفسك وانت تتساولين السلة ، وتضعينها على الارض :

- اعني •• كنت اتصور انك في الحقل ••

وتشع عيناه بالغضب حتى تلتمع فيهما الدموع • ويدور ليخرج • وتسبقيه • تمسكين به • تشدينه حتى يصطدم بك • يرفع رأسه • نظرتة غريبة • بين الغضب والبكاء • نظرتة مخيفة • عليك ان تكسري هذه النظرة قبل ان يخرج • تمسكين بيده المرتعشة ، وتسألينه بهدوء :

- ماذا حدث يا حمدان ؟

وصمت حمدان الاهبل كالسياط في جسدك ، صمته صراخ بفضيحة تشمت بها الحسارة • انتقام لآمنة الشيخ نعمان • عليك ان تسيطر على حمدان الاهبل يا جميلة •

عليك ان تكسري هذا الصمت • تهزين يده بلطف :

- انتظر قليلا يا حمدان • لدي طعام خاص لك ••

ويفاجئك بحدثه :

- لا اريد ••

وتجفلين • تنسحب يدك من يده • تكاد الشثيمة تنطلق من فمك • ليس هذا وقتها يا جميلة • عليك ان تتماسكي • ان تعامله باللفة التي يفهمها •• اللغة التي لا يستطيع ان يقاومها ••

اقتربت منه كثيرا • كانت انفاسك تصل الى وجهه • سأله هامة :

- ماذا بك يا حمدان ؟

كنت اقرب اليه من الحلم • عندما رفع عينيه خفضهما بسرعة • مددت يدك الى ذقنه • رفعت وجهه • كنت قريبة منه • كان صوتك ينضب في اذنيه بنعومة :

- انا زعلانة منك يا حمدان ••

انتفض كله • سألك بحزن حار :

- وماذا فعلت حتى تزعلي مني ؟

كانت يدك قد افترشت كل ذقنه • كانت تتحرك ببطء :

- لماذا لم تحلق ذقنك يا حمدان ؟

وقع الطائر في الشبك • عقدت الدهشة لسانه وهو ينظر اليك • قال باندهاق :

- سأحلق ذقني حالا ••

شددت على ذقنه بقوة حتى تألم ، لكن فرحه كان كبيرا وهو يزداد منك اقترابا حتى الالتصاق •• ويسمع صوتك في اذنيه دافئا :

- ليس الآن يا حمدان •• لكن على ان تعدني •

ولم يكن يسيطر على نفسه • لقد امتلكته تماما ••

- كما تريد ••

- ضع يدك على صدرك واقسم ••

ووضع حمدان يده على صدره • لامست صدرك في الطريق • احس بنعومته • تتمم بكلمات غير مفهومة • كانت يده هناك • الدغدة ما زالت تهزك • يدك تقع فوق يده • تضغط :

- هل انت غاضب مني يا حمدان ؟

- لو استطعت !

ويده تحت يدك • والباب مقفل • وانتما وحدكما • وحرارة يده تسري • الدم الحار يظلي • تأخذين يده • تنقلينها تحت يدك الى الدم الحار • تلهتين :

- هل تقسم انك لن تتحدث عني بسوء ؟

جميلة • يعجبك ان يعجب بك • لكنه بعيد • حاولت ان تقفي في وجه عمله • لم تستطيعي ان تقولي كلمة • كان اخوك يتأفف • فكرت بأن تسأليه ما الذي يجبره علي الاحتفاظ به • كنت تعرفين ان ذهنه يعمل • كانت خيرية اليوسف في البال • خيرية اليوسف عقدة اخيك • تسمعيه يشتمها وتفهمين • تشتمينها معه • يرسلك اليها فتذهبين • لم تستطيعي ان تناقشها كثيرا في موقفها من اخيك • لم يكن يهملك كثيرا ان تحل مشكلة اخيك • احمد له كل يوم مشكلة • كانت مشكلتك اهم • حاولت • فم خيرية اليوسف صامت • حاولت ان تدخل لها من جانب آخر :

– اسراري عندك يا خيرية • فلماذا تخفين عني اسرارك ؟

لم تحسي بأنها تتكلف :

– ليست لدي اسرار اخفيها ••

وقلت مازحة ، ويدك تضرب كتفها بلطف :

– وشريف الصالح ؟

ضحكت • لعلها فهمت اللعبة ••

– انت تعرفين يا جميلة انني بحاجة الى العمل ، واذا كنت تفكرين بأني لجأت لشريف الصالح من اجل شيء آخر ، فانك تخطئين •• ولو كان لدي ما اسعى اليه ، فانني اسعي اليه دون دوران ••

واخرجك هذا القول • هذا الرأس المرفوع يحررك دائما • كنت تحدثنيها عن كل شيء • كل اسرارك تعرفها •• باستثناء حمدان الاهبل • كنت تخجلين من هذا السريا جميلة • كان لك وحدك • كرامتك لا تسمح بأن تبوح به • لم يكن يهملك ان تحدثيها عن ضابط الجمرک وبذلت الغامقة • لم يكن يهملك ان تحدثيها عن شريف الصالح • وماذا قالت امه • وماذا قالت امك • لكن حمدان الاهبل شيء آخر • سر كبير •

وتسألين نفسك : لماذا تفعلينه ما دمت تخجلين منه ؟ وتضحكين : ومن لا يفعل ؟

وتتفرخ خيرية اليوسف في الذهن • وتحسين بالجرح يا جميلة • الخوف من كلمة تقال جعلها تقبل الفقر ، وترفض العمل مع اخيك • فهل هي من طينة اخرى ؟

★ ★ ★

كان خالد اليوسف يردد : ليس المهم ان نتعب • فكل حياة تحتاج الي تعب • لكن المهم هو ان نحافظ على كرامتنا • المال يروح ويجيء •• لكن الكرامة تبقى • الكرامة هي المال الحقيقي • هي الانسان •

وعندما احس بأن كرامة الانسان في ارضه تعرضت للخطر ، لم يسكت • قال : ماذا يبقى منا اذا راحت كرامتنا ••

ولم يكن يسمع • كان جسده كله قد تحول الى عروق ترتعش • تبدأ بالصسدر اللين تحت يده • ويدك تشد • يده تتحرك • اصابعه تحاول ان تنقبض • النشوة تختلط بالرعب • النعمة بين يديه ويخشى • يده تحاول ان ترتد • يدك تقاوم • الصوت يخرج منك فحيحا :

– هكذا اذن •• لا تريد ان تقسم ••

والدم الحار في الخد • في العين • في الهواء يخرج من فمك كثيفا •• وحمدان الاهبل بين يديك • الدوار يلف به • حمدان الاهبل يخترق اللحم • لا يحتمل • يكاد يسقط • يمد يده ليستند الى الحائط • تقتربين • مثل الخيوط تلتفين حوله • صوتك يصل اليه ، يضج بالدم الحار :

– هل تخاف يا حمدان ؟

الضباب يلف عينيه • ينظر ولا يرى • يحس • كل عرق في جسده يحس بالدم الحار • بالالتصاق • السؤال يعيد الحياة اليه عندما يتكرر • لا يتصور انه سمع • لا يعرف من الذي يتحرك وكيف • يدك في احضانه • يكون بين يديك • تلتفين حوله • يدك تشدان على ظهره • صدرك ينغرز في صدره • الشعر الطويل الناعم بين اصابعه • اللهاث مختلط • فمه في العنق • الدوار يزداد • الدار تلف بحمدان الاهبل • الاصوات تتداخل •• كل شيء يتداخل •• صوت الباب يبرز فوق كل شيء • حمدان يتفقت رعبا • تسرعين الى غرفة الضيوف • صوت والدك يرتفع • صوت بابها الخارجي يصل الى حمدان ، يقفز من باب الدار وهو يمسح عرقه ، يركض دون ان يدري الى اين ••

★ ★ ★

هل كنت تخافين حمدان ؟ هل كنت تخافين ان يتكلم ؟ من سيصدقك يا جميلة ؟ من سيسمع كلامه ؟

وقفز شريف الصالح الى ذهنك • كنت تجلسين امام الناغذة ولا ترين شيئا خارجها • بينك وبين الشارع قفز شريف الصالح • لماذا يبئد هكذا ؟ لماذا يتجنبك ؟ تلك الابتسامة التي كان يلقاك بها ، فتحسين بأنها تحتضنك ، لماذا تحولت الى عقدة في الجبين ؟ هل صار شريف الصالح يخاف ؟ لكن ما يفعله ، وتسمعين عنه ، شيء آخر •

شريف الصالح يعمل في الارض • شريف الصالح يهرب الدخان • الارض لكم يا جميلة الفايز • والدخان لكم • فهل يقدم له اخوك العمل ، ليهرب منك ؟

لم تكن ضحكك حقيقية وانت تسألين اخاك :

– هل صحيح ان ابن المدارس سيحمل الدخان على اكتافه ؟

وكانت ضحكته لثيمة وهو يرد :

– لم يعد ابن مدارس ••

صار شريف الصالح فلاحا • لكنه رجل • يعجبك يا

وحمل كرامته فوق رأسه المرفوع • وظل رأسه مرفوعا •

★ ★ ★

هل يحمل احمد الفـايز كرامته وهو يتسلل الى آمنة الشيخ نعمان ؟

الكرامة ملجأ الفقراء • هكذا اقنعت نفسك • والحياة ان تكسبي الحياة • ان تعيشها لحظة لحظة • ان تحسبي بدمت يغلي • ان تصعد النار الى رأسك حتى يدور •

هل تصل الى يدك لحظة الحياة وترفضينها ؟ حتى حمدان الابهل لا يفعل ذلك • لا يفعله الا من لا يملك لحظة الحياة • فماذا يضريك ان تعيشي • من يجرو ان يطالك بكلمة ، وانت تملكينهم ؟ الكل يتمناك يا جميلة ، وسيتمنالك الكل مهما فعلت • فهل تخللين نفسك بالانتظار ؟

وكنت تحسبن بجرأة جديدة وانت تسيرين وحدك الى الحقل •

ماذا كان يدور في ذهنك وانت تسيرين ؟

كنت مقتنعة بأنك ستصلين الى شريف الصالح • وان اشارة منك ستقوده اليك • شريف الصالح صار يخاف • مثل حمدان الابهل يخاف • وحمدان الابهل تضعينه بين يديك عندما تشائين • الخوف يجيء به اليك • فـماذا يستطيع شريف الصالح ان يفعل ؟

وتتذكرين نظرته اليك • ترفعين رأسك وتدفعين صدرك • كان يحب هذا الطول • قالت لك ذلك عيناه اكثر من مرة • لم يكن يخاف ان يرفعهما اليك • كنت مرصودة له • وكان يستمتع بذلك • اشارة منك ويعود • فمن الذي لا يحلم باشارة منك يا جميلة الفايز •

وكنت تسرعين • تدخلين بيت الشيخ نعمان لاهثة • فوجئت بك آمنة الشيخ نعمان • ارتبكت • لم تعرف كيف ترحب بك :

– منذ عمر طويل لم نرك يا جميلة ••

وكادت تنحني لتقبل يدك • ووضع سعيد الشيخ نعمان عينيه في الأرض ومضى • وام سعيد كانت في الزاوية ، ترحب بك بصوت وامن • وآمنة تدعوك الى الجلوس • وانت تقترحين ان تخرج معك • ترعمين انك قد اشتقت للهواء • وآمنة تخرج معك ولا تصدق • تعرف انك في الهواء معظم الوقت • اخبارك تصلها من حمدان الابهل • وعينك تطوف بالحقل كله • وتسيرين معها • تحت ظل الزيتونة كان سعيد • عينه في الارض وهو يقف • كبر سعيد الشيخ نعمان • هكذا احسست وانت تقيسينه بنظراتك • تساءلت :

– الا يعمل احد هنا اليوم ؟

وام يكن هناك احد • نسيت انهم يستعدون لحملة الدخان يا جميلة • قالت آمنة الشيخ نعمان :

– شريف الصالح يسافر غدا ••

وكدت تضحكين • لكن الغضب كان اكبر • كنت تحسبن بالخبية يا جميلة • تماكنت نفسك • هذه اول خطوة • والطريق طويل • اطول من الطريق الذي سيسير فيه شريف الصالح غدا ، وظهره ينوء بحمله • ليس لديك حمل حتى تتعبي • ما يفلت اليوم يجيء غدا • والخبية كبيرة • وكنت تحسبن بأنك تريدن شريف الصالح •• لكن حمدان الابهل هو الذي اطل • معك حمدان الابهل حيث تكونين • ينظر اليك بعد المفاجأة • الجرأة تطل من عينيه • تبتسمين :

– ما الذي اتى بك الآن يا حمدان ؟

وحمدان لا يستطيع ان يكذب :

– انا •• ؟

وتنقذه آمنة الشيخ نعمان :

– حمدان لا ينسى زيارتنا ••

وتتسع الابتسامة • هل انت وفي الى هذا الحد يا حمدان ؟

– يبدو انك تحب سعيد الشيخ نعمان كثيرا ••

وسعيد الشيخ نعمان تحت ظل الزيتونة • عيناه في الارض • وآمنة الشيخ نعمان تضحك :

– حمدان يحب الزيتونة اكثر ••

وظل الزيتونة يمتد بعيدا • والنسمة باردة • والخبية باردة يا جميلة • والوقوفه تطول • وآمنة الشيخ نعمان تدعوك الى كأس من الشاي • وحمدان الابهل يتحمس • وانت تضحكين وتقترحين على سعيد الشيخ نعمان ان ينضم اليكم ، لكن عينيه تظلان في الارض ••

★ ★ ★

– مسكين شريف الصالح ••

ونظرت الى آمنة الشيخ نعمان قبل ان تصل الكأس الى فمك • وتحمس حمدان الابهل :

– لا تتحدثي عنه هكذا ••

والحديث لا يدور الا عن شريف الصالح ••

– كان والده ينذره لغير هذا ••

– لكنه يستطيع •• سيعمل • ستتغير الظروف • سيدرس •

وحماس حمدان الابهل يفوق كل حماس •

– لماذا تحبه يا حمدان ؟

– ولماذا لا احبه ؟

وآمنة الشيخ نعمان •• هل تحبه ؟

– ما رأيك يا آمنة ؟

والشفاه تجف . هل تعرف السر ؟ لكن آمنة الشيخ نعمان
تعرف كيف تدور :

– وانت تستحقين يا جميلة ..

والشفاه مغلقة . وكأس الشاي تنتهي . وحمدان الابهل
يعود . والسللة ليست ثقيلة ..

والحديث يدور عن شريف الصالح ..

الطريق طويلة .. وحملة الدخان ثقيلة :

– هل تتصور انه سيحتمل يا حمدان ؟

شريف الصالح يستطيع ان يفعل كل شيء .

– ولكنه تغير ..

وحمدان الابهل لا يحس بما تحسین به :

– بالنسبة لي .. لم يتغير ..

والطريق ليست طويلة .. والمساء يزحف بين التلال .
والوالدة تعرف انك تزورين خيرية اليوسف .. والخيبة باردة
.. وعينا حمدان الابهل تشعان بفرح وهو يلوح بالسلسلة
الخفيفة .. والناس عادوا الى القرية ..

– لماذا لا نطيل الطريق يا حمدان ؟

وقبل ان يرد ، كنت تقفزین . خفيفة مثل غزال . وحمدان
الابهل كان ينظر انيك بذهول .. ثم يدرك .. ويقفز خلفك ..

والطريق طويلة امامكما .. والخفة تزداد .. وصوتك
يرتفع .. تسليّن الخيبة الباردة بأغنية حارة .. وتسرعين ..

يداك تلوحان في الهواء مثل طائر .. وحمدان الابهل خلفك
يقفز .. يراك تميلين عن الطريق فجأة .. الارض المحروثة
تحاصر خطواتك .. وهو يقترب .. وانت تلقين بنفسك تحت
شجرة زعرور ، تقف وحيدة وسط الارض ..

وعندما يخف لهائك وانت تتمرغين في التراب ، تخسلين
الخبية الباردة ، لا تسمعين صوته . ترفعين رأسك قليلا .
ترينه في الطريق ، فوق شجرة الزعرور ، يقف ، ويراقب .
ويخرج من فمك السؤال ضاحكا :

– لماذا تقف هكذا يا حمدان .. ألا تريد ان ترتاح ؟

ويجر حمدان الابهل نفسه وهو يقترب ، فتشمين رائحة
الخوف تصعد من خطواته البطيئة . والخبية الباردة . ترفعين
رأسك من جديد وتشيرين اليه :

– لماذا تتردد يا حمدان ؟ هل تقبل ان اظل هنا وحدي ؟

ويقترب حمدان الابهل ، ويرتجف . ونظرته تتركز على
هضبتين ارتفعتا امامه ، تهتزان .. والابتسامة تغريه .
وصوتك يصل اليه صريحا :

– تعال هنا يا حمدان ..

ويدك التي تشير الى جانبك توسد له الارض .. بجانبك
تماما .. وحمدان يزحف حتى يصل .. ويجلس .. فترفعين

– انا .. انا لا اكاد اعرفه .

وضحكة حمدان الابهل تخرج ممطوطة . وقلبه يخرج
على لسانه :

– انت تكذابين ..

وقبل ان تهم بالرد ، تشيرين اليها :

– ماذا تقصد يا حمدان ؟

ويحس حمدان بأن لسانه قد ورطه :

– اقصد .. من الذي يكره شريف الصالح . انت ..
هل تكرهينه ؟

وتدافع آمنة الشيخ نعمان عن نفسها :

– ولماذا تكرهه ؟

وكان كل شيء في داخلك يحثك :

– نحن لا نتحدث عن الكره .. عن الحب يا حمدان .
انت تحبه . فهل تتصور ان آمنة تحبه ؟

وتسبقه آمنة :

– ربما يتصور شيئا ، لانه رأني اقف معه مرة ..
وبدأ كل شيء يتحرك داخلك .. وعاد لسان حمدان
متهكما :

– مرة ؟! قولي مرة كل ساعة !

واحست آمنة بالحرج :

– عيب يا حمدان .

– ومن الذي يتكلم عن العيب ؟ انا اقصد انك تحبينه
مثلما احبه . تعملين له الشاي . تجلبين له الماء .. هل أنا
كاذب يا آمنة ؟

– احمد الفايز هو الذي طلب مني ذلك ..
وكنت تريدان ان تعرفي اكثر :

– حمدان لا يتهمك يا آمنة . وشريف الصالح يستحق
ان تساعديه ..

وعادت الابتسامة الى شفتي آمنة :

– وانا اقول انه يستحق .. لذلك اساعده ..
والسر يقترب من الشفاه . هكذا تتصورين ..

– هل سنخرج من هنا ويدنا فارغة يا حمدان .
والخضرة حولنا تملأ الارض ..

وحمل حمدان الابهل السللة وخرج . والسر يقترب من
الشفاه :

– وماذا ايضا يا آمنة ؟

وآمنة يخيفها السؤال ..

– ماذا ؟

– شريف الصالح يستحق ..

رأسك اليه مرة اخرى .. ودعوة العينين صريحة :

– لماذا لا تتمدد يا حمدان .. حتى تستريح قليلا ؟

و حمدان الذي يرتجف .. يدير وجهه بعيدا عنك ويتمدد .. والخيبة باردة .. وريح المساء باردة .. و حمدان الاهبل يرتجف .. تحسين به بعيدا قريبا .. والغضب يرتجف .. ويدك تمتد الى رأسه من الخلف .. تقبض على شعره الكثيف .. تشده بقوة ، وتضع صرخته امام صوتك :

– تعطيني ظهرك يا اهل ..

ويجد نفسه في حضنك تماما .. يحس بالدهشة .. بالفرح .. بالرعب .. يرى امامه عينين متوحشتين .. يحس بيدين متوحشتين تشدان به بقوة .. يحس برأسه يغوص بين موجتين .. وانت تشدينه اكثر .. وصوت لهائك يشده .. والموجتان تصخبان .. وانت تهمسين ولا يفهم ..

و كنت تحسين بأنه يحاول ان يقاوم فتلتصقين .. ثم يهدأ .. ويرغب .. يمد يده .. يتردد .. تحسين بالاحترق .. تهمسين له :

– لماذا تخاف يا حمدان ؟

ويرتجف حمدان الاهبل غضبا هذه المرة :

– انا لا اخاف ..

وتسخرين منه :

– لماذا ترتجف اذن ؟

و كانت اللحظة مشرقة في ذهن حمدان .. كان شريف الصالح يضيء في اللحظة .. تذكر بأنه وعده ألا يخاف .. تذكر استلته الجارحة كلها .. رفع رأسه .. استند الى كوعه .. كان اللحم الابيض بين يديه كما لم يشاهده من قبل .. غاصت عيناه في اللحم الابيض .. في الوردة الصغيرة فوق كل هضبة .. اغمض عينيه يحتفظ بالصورة .. لم يمد يده .. كانت الشجرة تدور .. والارض تهتز .. والدم الحار يغلي .. وصوتك يستحته :

– لك ما تريد يا حمدان ..

واللحظة لا تبساع بثمن .. والدفء ، وبرودة المساء والخيبة .. والعمر والانتظار وشريف الصالح وحمله الثقيل ، ويد احمد الفايز فوق صدر آمنة الشيخ نعمان .. ولهات الفرح .. والرغبة .. و حمدان الاهبل ينتفض بالغضب .. يفاجئك الغضب في عينيه ..

– ماذا جرى لك يا حمدان ؟

والجرح الغائر في الصدر .. وصوت حمدان الذي يقطر سما :

– هل تتصورين انك تشتريني ؟

و كنت تتمسكين به .. والخيبة تكبر .. واللحظة الهائلة تهرب .. وانت تتمسكين بها ..

– لا يا حمدان .. انني اريدك ..

وكان صوتك في اللحظة صادقا و حارا .. كنت تريدينه .. لكنه كان يفلت من يدك بقوة .. ويقف وهو يصرخ :

– ماذا تريدين مني ؟

ولم يكن لديك الجواب .. ماذا كنت تريدين منه ؟ نظرت اليه .. هذا الاهبل .. كيف يسأل ..

وشعرت بأن قناعتك تهتز .. وانك تتمادين معه .. وانته يتمادي .. وقبل ان تسيطر عليه من جديد .. كان صوته الساخر يأتيك :

– اذا كنت تريدينني حقا .. فلنتزوج ..

و كنت تتصورين انك تغرسين يدك في كل تراب الارض لتعفريه .. وكان صراخك يتحول الى جنون :

– يا ابن الكلب .. سأجعلهم يقتلونك ..

و كنت تنهارين على الارض .. القراب يملأ فمك .. وانت تسمعين صوته الواثق :

– لم اعد اخاف ..

وحين رفعت رأسك .. كان قد تركك تلملمين نفسك .. وحمل السلة ومضى ..

★ ★ ★

هل علمك هذا السقوط شيئا يا جميلة الفايز ؟ هل علمك شيئا غير الحقد الذي يزداد ؟ غير الانتظار .. وزيارة الحقل .. وتسقط الاخبار ..

ومن اين تأتيك الاخبار ؟

آمنة الشيخ نعمان تستغرب زيارتك المتكررة .. احمد الفايز يحس بالضيق .. فانت تساعدين آمنة على التهرب منه .. خيرية اليوسف لم تجدي حجة لتريها .. وبيت الحاج خليل انقطعت رجلك عنه .. وياسين الحراث حين تلتقين به لا تسمعين منه الا تحية صغيرة .. وجميل رزق الله لا يرد السلام ..

من اين تأتيك الاخبار يا جميلة ؟

ظل الزيتونة لا يتحدث .. وسعيد الشيخ نعمان صغار يرفع نظره .. صرت تلاحظين امتداد هذا النظر وتحسين به ..

هل حمل اليه حمدان الاهبل بعض الاخبار ؟

والطريق كانت تقود الى سعيد الشيخ نعمان ..

وآمنة تضحك وانت تحاولين .. من قبلك حاول شريف الصالح .. صحيح ان سعيد الشيخ نعمان لم يعد يهرب منك .. وأنه صار يتكلم بكلمة او كلمتين في حضرته .. ولكنه ظل ميتا كما كان .. يدفن نفسه تحت شجرة الزيتون .. او يعمل ما يأمره به احمد الفايز ..

والخيبة تستمر باردة وانت تدخلين .. و حمدان الاهبل

يهرب ٠٠ ففتصنعين الاستغراب ، وتتساءلين :

– لماذا يأتي الى هنا كثيرا ؟

ولا تخفى عليك رنة صوت آمنة الشيخ نعمان وهي ترد ضاحكة :

– حمدان ٠٠ انه يذهب حيث يشاء ٠٠ وقد صار يأتي الى سعيد كثيرا ٠٠ خاصة في غياب شريف الصالح ٠٠

والضيق يزداد ٠٠ وانت تلفين حول « الخشة » ٠٠ وتقودك الطريق الى ظل الشجرة ٠٠ بينما تشغل آمنة الشيخ نعمان بما لديها من غسيل ٠٠ وفي الظل ، كان حمدان الاهل يجلس مع سعيد ٠٠ وعندما رآك ، ركز عينيه في عينيك لحظة ٠٠ وثفز الحبله ٠٠ وظل يركض حتى اختفى ٠٠ بينما كان صوت سعيد الشيخ نعمان يرتفع ضاحكا :

– ويقول انه لا يخاف ٠٠

وعندما وقفت امامه ٠٠ لم يتحرك عن الارض ٠٠ رفع اليك نظرة طويلة فوجئت بها ٠٠ ثم قال :

– اهلا ٠٠

والريح تلعب بأغصان الزيتون الضخمة ٠٠ وبثوبك الواسع ٠٠ وانت تقفين في الريح ٠٠ وتسقط نظرتك المتسائلة الى اسفل ٠٠ وسعيد الشيخ نعمان لا يقف ٠٠ والحر ج يسقط ٠٠ وتحاولين مداراة الحرج فتسألين :

– ما الذي جعله يهرب هكذا ؟

ويركز سعيد الشيخ نعمان نظرتة الجريئة :

– خاف منك ٠٠

وانت تقاومين الغضب وتسألين :

– وهل انا مخيفة ؟

– ربما بالنسبة لحمدان ٠٠

– وانت ٠٠

– انا ٠٠ لماذا اخاف منك ؟

– وهو ٠٠ لماذا يخاف ؟

– لماذا لا تسألينه ؟

وسعيد الشيخ نعمان غريب ٠ يبدو امامك شخصا لم تعرفه من قبل ٠ هل قال له حمدان الاهل شيئا حتى تغير هكذا ؟

– ألم يقل لك ؟

– قال لي انه لم يعد يضاف ٠٠ وانا مثلك استغرب ما فعل ٠٠

– ربما جاءته النوبة ٠٠

وكانت ثقته تهز اعصابك :

– حمدان لا يصاب بنوبات ٠ انتم سمعتموه حمدان

الاهل ٠ وهو ليس مجنوناً ٠ هبل حمدان في طبيته الزائدة ٠٠

وهذا ما لم تنتظري سماعه من هذا الميت الذي يصحو

فجأة ٠٠ ولكنك لا تملكين الآن ان تتوقفي :

– يبدو انك تحبه ٠٠

– ولماذا لا احبه ؟

واللغة تتكرر ٠ فأين تسيرين يا جميلة ؟

– انا اسأل فقط ٠٠ فمن قبل لم لاحظ ذلك ٠

– اني اتعلم منه ٠٠

– من حمدان ؟

– اجل ٠٠ من حمدان ٠٠ ألا يعجبك ان اتعلم منه ؟

وصوت سعيد الشيخ نعمان لا يبتلعه فمه ٠٠ ولكنك لا تملكين الآن ان تتوقفي :

– وهل يعجبك انت ؟

وصوته يتلون ٠ يحمل المعنى كما يريد له ان يكون ٠ والسخرية تزداد وضوحاً ٠٠ وانت تصين انه يتجه الى التحدي ٠٠

– اجل ٠ يعجبني اكثر من غيره ٠٠

من اين جاء بالصوت ٠ كيف عاد لسانه الى فمه ٠٠ وانت تقفين وحيدة معه ٠ وحمدان الاهل يهرب منك ٠ وآمنة تغسل ٠٠ وشريف الصالح تنوء كتفه بحمله الثقيل ٠٠ والموقف لا يصح ان يستمر ٠٠

– ألم يعلمك حمدان الاهل ان تقول لزاورك تفضل !؟

– كنت اعتقد انها ارضكم ٠٠

وجلست في مواجهته ٠ كان سعيد الشيخ نعمان امامك شخصاً جديداً لم تعرفه من قبل ٠ سألته بصوت لا يخلو من رقة :

– لماذا تخاطبني هكذا ؟

والنظرة كانت جديدة ٠ نظرة رجل الى امرأة ٠ تحاول ان تكتشف ٠ والنسمة ليست باردة ٠٠ وصوته ظل في فمه ٠٠ وانت تضيفين :

– هل بدر مني ما يضايقك ؟

وعادت عيناه الى الارض وهو يرد بخجل :

– ابدا ٠٠

وكانت فرصتك ٠ هذا الميت الذي صحا ٠ والخيبة ٠ وحمدان الذي هرب ٠٠ وشريف الصالح ٠٠ وظل الزيتون ٠٠ والدم الحار ٠٠ وعينك ترى رجلاً جديداً ٠ ورأسك يقترب ٠٠

– لماذا لا تفعل كشريف الصالح ؟

ورفع نظرة متسائلة ، ففاجأته عينك ٠٠

– حملة دخان ٠٠

والحديث نفسه كان يدور ٠٠

– لقد سألتني حمدان الابهل ..

وللصوت غصة ..

– لكنني اسأل : هل يوافق اخوك ؟

• وكنت تميلين بعنقك في دلال • امام رجل جديد •
• تحت ظل زيتونة • وسعيد الشيخ نعمان يرى •
يحس • يسمع :

– سأقنعه .. اذا طلبت مني ذلك ..

والصورة تعود .. تقريبين منه :

– اطلب مني ..

وصوته يرتعش :

– لقد عرفت انني اريد ..

وسعيد الشيخ نعمان يرتبك وانت تصرين :

– الا تعرف كيف تطلب ؟

والرياح تداعب الشعر الطويل وقد تحرر •
وسعيد الشيخ نعمان لا يعرف ماذا يفعل .. واذت
تعرفين .. والخيبة الباردة .. وهو يفكر بأن يصرخ •
ليس بحاجة لمن يذله • الصوت يختنق • يفكر بمغادرة
المكان .. والنظرة تحاصره .. والصوت الهامس تحت
الشجرة :

– هل تخجل مني ؟

والصورة تعود ..

– ولماذا اخجل ؟

– اذن ؟

والدم الحار يغلي ..

– لا اعرف ماذا تريد ..

• وكنت تعرفين • وكان يعرف • الرجل الميت صحاب •
ورأسك يذترب .. ووجهك صار قريبا من اذنه • والميت
الصاحي لا يتحرك .. وحمدان الابهل يركض .. وأمنة •
الشيخ نعمان .. واللعبة تملو .. مثل اغنية للاطفال :

– قل لي : يا جميلة • احب ان ..

ولحظة الصمت حملت إليه المعنى • والرييح •

وباب « الخشة » المغلق ..

– احب ان اسافر في حملة .. فهل تقنعين
اخاك ..

وشخير احمد الفاييز من وراء الباب .. واذن
سعيد الشيخ نعمان .. وصوت آمنة المتألم .. واللعبة
ثار : فمه يقترب :

– يا جميلة ..

وتقاطعيه :

– لا اسمع ..

والرييح تحمل السر .. وفمه يقترب • والرييح

تداعب الشعر الطويل .. ولهاثة يداعبه ..

– احب .. احب ..

وصوته يتحول الى هواء يداعب الشعر الطويل
وقد تحرر •

– ماذا بك ؟ ..

والصور تتزاحم • وحمدان الابهل يركض في
الرييح .. وأمنة .. آمنة .. آمنة ..

– هل تخجل ان تطلب ؟

– ماذا ؟

– ما تريد ..

والصورة تتضح • في عينيك كان يرى الصورة •
كان يدقق في عمر كامل .. كانت يده تمتد .. والشعر
الطويل ينزاح .. بلطف ينزاح .. والميت يصحو ..
فمه يقترب .. طرف اذنك ترتعش تحت لمسة خفيفة :

– يا جميلة ..

ولا يكمل .. فمه ينتقل .. وتفطحين له الطريق ..

والصحوه تأتي ..

ماذا حملت لك الصحوه يا جميلة ؟

كان بجانبك • كان رجلا جديدا تضعين يديك عليه •
تحسين بأنك تضعين يديك عليه .. وتذكركين :

– لو قلت لاحد ..

ويداك تمثلان حركة السكين فوق العنق • لكن
سعيد الشيخ نعمان لا يرتعش • يحس بأنه يستعيد بعض
ما فقد .. يقول بصوت جديد ، وعيناه في عينيك :

– سأراك كثيرا ..

وتهزين رأسك مرات .. والدهشة تهزك من
الداخل •

دار الآداب تقدم

احلام واخصان الابيض

رشاد أبو شاور

صدر حديثا